التلطف فى الأساليب العربية: مواقف، دوافعه ووسائله

(Kindness in Arab Approaches: Attitudes, Motives and Means)

*الدكتور نسيم محمود

** عبدالعليم

*** الدكتور عبد الرزاق آزاد

Abstract

Spoken words leave its impression in human daily life and play an important role to change the conversation trends from harshness to softness. The present paper discusses kindness in Arab approaches. It finds that individual courtesy and group positions are two main baptized positions of the speaker which have been elaborated with some examples. Politeness, respect and modesty, optimism, pessimism, veneration and glorification are the main motives of kindness in Arab styles, which have been illustrated to enrich the study. This research paper is a motivational study to use the soft and kind words in daily conversation which will lead to kindness, softness and caring attitude in human society.

Key Words: Kindness, individual courtesy, respect, modesty, optimism and Pessimism

إن اللغات تتأثر بحضارات الأمم ونظمتها، وتقاليدها، وعقائدها، واتجاهاتها النفسية والثقافية وغير ذلك من شؤون الحياة الاجتماعية، وكلّ تطور يحدث فى ناحية من هذه النواحي يتردد صدها فى أداة

* استاذ المساعد، قسم العلوم الاسلامية، كلية علامة اقبال الحكومية للتعليم العالى، سيالكوت

** استاذ المشارك، قسم العلوم الاسلامية، كلية جناح الاسلامية الحكومية، سيالكوت

*** استاذ المساعد، قسم العلوم الانسانية، جامعة كامست، اسلام آباد، الحرم الجامعى، وبارى

التعبير وهي اللغة، لذلك تُعدُّ اللغات أصدق سجل لتاريخ الشعوب. فكلما اتسعت حضارة الأمة ، وكثرت حاجاتها، ورتقي تفكيرها، وتهذبت اتجاهاتها النفسية، فإن اللغات نهضت بأساليبها و فنونُ اقابيلها المتعددة.² واللغة العربية أصدق شاهدٍ على ما نقول فقد عُدَّت في مقدِّمة اللغات الراقية لما وصلت إليه من تهذيب في ألفاظها وسموِّ في أساليبها، ودقَّة في تراكيبها، ومرونة في التعبير عن حاجاتها، وتنوعت فنون القول فيها حتى سحرت كثيراً من الباحثين قدماء و محدثين. فأروها أفضل اللغات وأفصحها، وأجملها، ولذا يقول ابن جنيّ الاديب العربي: "وذلك أنا نسأل علماء العربية ممَّن أصله عجميٌّ وقد تدرب بلغته قبل استعرا به عن حال اللغتين، فلا يجمع بينهما، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك، لبعده في نفسه، وتقدم لطف العربية في رأيه وحسه. سألت غير مرّة أبا عليّ رضي الله عنه.. عن ذلك، فكان جوابه عنه نحواً مما حكيتة ... ولم نر أحداً من أشياخنا فيها كأي حاتم و بُنْدَار و أبي عليّ، و فلان و فلان يُسوون بينهما ولا يُقربون بين حالهما . وكان هذا موضع ليس للخلاف فيه مجالٌ لوضوحه عند الكافّة"³ وأشار اليه ابن خلدون بان هذه الملكة حاصلة للعرب لبيان المقصد⁴ وصرح ابن الفارس بافضلية اللغة العربية ووسعتها على اللسنة الاخرى وذلك دليلٌ على أنّ الله اختارها لأشرف رسله وخاتم رسالاته ، فأنزل بها كتابه المبين⁵ وإلى مثل هذا ذهب السيوطي وغيره من علماء المقدمين.⁶ فبالاختصار أنّ اللغة مرآةٌ ينعكس فيها كلُّ ما يسير عليه الناطقون في اظهار اقوالهم ، اراداتهم ومعاملاتهم الاجتماعية عامة كانت اوخاصة ويشمل ذلك العقائد والعادات، والتقاليد، والمبادئ وغير ذلك مما يصبغ اللغة بصبغة خاصة في جميع مظاهرها: في الأصوات، والمفردات، و الدلالة، والقواعد، والأساليب. فما يكون عليه الأفراد على سبيل المثال. من حشمةٍ وأدبٍ في شئونهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض ينعكس صداه في لغتهم. ان هذا البحث العلمى مشتمل على أربعة مباحث التالية: المبحث الأول في معنى كلمة التلطف والمبحث الثاني في مواقف عمد المتكلم التلطف والمبحث الثالث في دوافع التلطف واسبابه والمبحث الرابع في وسائل التلطف فتفصيل هذه المباحث بما يلي:

²د. على عبدالواحد وافي، اللغة والمجتمع (السعودية: شركات مكتبات عكاظ، 1403هـ، 1983م)، 13.

³أبي الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، تحقيق- محمد على النجار (بيروت: دار الكتاب العربي)، 1: 243.

⁴عبدالرحمن ابن خلدون، مقدمة (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، 546.

⁵أبو الحسين أحمد ابن فارس، الصحابي، تحقيق - السيد أحمد صقر (القاهرة: عيسى البابي وشركاه)، 16.

⁶جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وضبط- محمد أبو الفضل وغيره (بيروت: دار الفكر)، 1: 321.

المبحث الأول: معنى التلطف

التَّلَطُّفُ في اللغة من مادة (لطف) و هو الترفُّقُ كما صرح ابنُ الفارس-⁷ وفي التهذيب للأزهري " يروى عمرو عن أبيه أنه قال: اللطيف: (الذي يُوصِلُ إليك أربك في رفق . واللطيف من الكلام ما غُمَضَ معناه وخفي"⁸ قال الزمخشري "ومن المجاز... وتلطفْتُ بفلانٍ: احتلْتُ له حتى اطلعتُ على أسرارهِ"⁹ وفي معجم ألفاظ القرآن الكريم لمجمع اللغة العربية، والتَّلَطُّفُ في قوله تعالى {فَلْيَأْتِكُمْ بِرُقِيٍّ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ} ¹⁰ أَيَّ وليترَفَّقُ في الحصول على ما يريد. يتضح مما سبق أنَّ التَّلَطُّفَ في اللغة يعني الترفق، غير أنَّه ترفقٌ لا يعدم الحيلة والفتنة والذكاء. وقد فطن القدماء من علماء العربية لهذه الظاهرة ودرسوها تحت مباحث الكناية وأنواعها ودوافعها، وعينوا أيضاً بعض المصطلحات المتصلة بها كتحسين اللفظ، وتلطيف المعنى، والكنايات اللطيفة، والتعريض فيكون من الكناية وذلك أحسنها الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره قال الله عز وجل: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ-¹¹

في الاصطلاح كلمة التلطف قد عُرِفَتْ في الدراسات الغربية الحديثة بمصطلح يوناني تعني الدلالة الحرفية له الكلام الحسن-¹² وقد تُرْجِمَ هذا المصطلح في العربية بألفاظٍ مختلفة، فمن ذلك ما قاله الدكتور كمال بشر هو "حسنُ التعبير"¹³ واعتبره الدكتور كريم زكي بتحسين اللفظ¹⁴ وقال الدكتور أحمد مختار بانه التَّلَطُّفُ¹⁵ وزاد الدكتور محمد علي الخولي وقال بانه لطف التعبير¹⁶ وقد عرّفه أولمان

⁷ أبو الحسن أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق- عبدالسلام مجدهارون (بيروت، دار الفكر، 1979م)، 5: 197.

⁸ محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق- عبدالسلام مجدهارون (الدار المصرية: 1384هـ)، 13: 347.

⁹ جار الله الزمخشري، أساس البلاغة (بيروت، دار صادر، 1399هـ)، 409.

¹⁰ الكهف: 18: 19.

¹¹ البقرة: 2: 187.

¹² د- كريم زكي حسام الدين، المحظورات اللغوية (مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، 1985م)، 17.

¹³ ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة- د. كمال مجده بشر (مكتبة الشباب، 1992م)، 196.

¹⁴ حسام الدين، المحظورات اللغوية، 17.

¹⁵ د- أحمد مختار عمر، علم الدلالة (الكويت، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، 1402هـ- 1982م)، 240.

¹⁶ د- محمد علي الخولي، معجم علم اللغة النظري (انكليزي - عربي) (مكتبة لبنان)، 88.

بأنه "وسيلة مقنعة بارعة لتلطيف الكلام وتخفيف وقعه"¹⁷ وعرفه أحمد مختار بأنه "إبدال الكلمة الحادة بكلمة أقل حدة أو أكثر قبولاً"¹⁸ ويُعدُّ هذا الأسلوب الوجه المشرق لظاهرة اللامساس أو المحظورات اللغوية، حيث يرى بعض علماء اللغة المحدثين أنَّ استبدال الكلمات اللطيفة الخالية من أى مغزى سيء أو مخيف بكلمات اللامساس أو المحظورات اللغوية يُعدُّ ضرباً من ضروب التلطف أو حسن التعبير أو تحسين اللفظ.¹⁹

المبحث الثانى: مواقف عمد المتكلم التلطف

يعمد المتكلم إلى أسلوب التلطف فى موقفين وهما التلطف الفردى والموقف الجماعى. التلطف الفردى لايتأتى لكل أفراد المجتمع، بل هو من خصائص ذوي الفطنة، وسرعة البديهة والذكاء، وقد أشار القدماء من علماء العربية إلى هذا الموقف وحاولوا علاجه تحت باب ما أسَمَوْهُ "التخلص من الكذب بالتورية عنه" مستشهدين على ذلك بما روي عن النبي ﷺ.²⁰ توجد أمثلة كثيرة فى كلام العرب للتلطف الفردى ومنها أنَّ الخليفة المنصور كان فى بستانٍ ومعه الربيع، فقال له: ما هذه الشجرة؟ قال الربيع: شجرة الوفاق يا أمير المؤمنين، ولكن الاسم الحقيقى لتلك الشجرة كان شجرة الخلاف، فتفاءل المنصور بذلك وعجب من ذكائه²¹ ومن هذه الامثلة ما روى عن الخليفة المأمون أنه كان بيده مساويك، فسأل الحسن بن سهل ما هذه؟ فقال: ضد محاسنك يا أمير المؤمنين، وكره أن يقول مساويك لأنه حسبه ادنى شئ عن مقام الملك فلذا لم يقل المساويك. ويبدو أنَّ هذا الموقف هو الذى أوحى لابن دريد بفكرة تأليف كتابه (الملاحن) حيث إنَّ الفكرة الأساسية التى يقوم عليها الكتاب هي استخدام اللفظ المشترك على سبيل التورية لمعانٍ أخرى خلاف ما هو ظاهر، وقال عنه: (هذا كتاب ألفناه ليفزع إليه المجرى المضطهد على اليمين المكره عليها، فيعارض بما رسمناه، ويضمُر خلاف ما يُظهر لیسلم من عادية الظالم).²² اما الموقف الثانى هو الموقف الجماعى وذلك يعود إلى تواضع الجماعة اللغوية أو المجتمع بشكل عام، فاللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية تخضع الفرد لما

¹⁷أولمان، دور الكلمة فى اللغة، 196.

¹⁸عمر، علم الدلالة، 240.

¹⁹أولمان، دور الكلمة فى اللغة، 196؛ حسام الدين، المحظورات اللغوية، 14.

²⁰البيهقى، السنن الكبرى، تحقيق عبد القادر عطا (بيروت، دارالكتب العلمية، 2003م)، 10: 335-336.

²¹أبو منصور الثعالبي، كتاب الكناية والتعريض (بيروت، دارالكتب العلمية، 1405هـ/1984م)، 71.

²²أبو بكر بن الحسن، الملاحن ابن دريد، تعليق - إبراهيم الطيفيش (بيروت، دارالكتب العلمية، 1407هـ/1987م)، 15.

ترسمه فالدوافع النفسية أو العاطفية التي تفرض على الجماعة اللغوية نهجاً محدداً في التعبير ليس للفرد إلا محاکاتها واتباعها، وذلك ينطبق على جُلّ الدوافع التي تعود إلى الحياة الاجتماعية كالكياسة والتأدب والخوف والتطير والتفاؤل والتشاؤم ونحوها من الدوافع التي تلجأ الجماعة اللغوية إلى التلطف بشأنها بعبارة كريمة وألفاظ نبيلة، وقد لوحظ بأن العرب مثلاً يعيرون على الرجل إذا كان يكشف ويصرح فيما حقه الستر والتحرر والأدب. والأسباب الاجتماعية واضحة جداً في مراعاة التلطف في مثل هذا الموقف، ولكن الحالة الاجتماعية تختلف من أمة إلى أمة ومن بيئة إلى بيئة، ومن جيل إلى جيل، فلعل ما يدعو إلى التلطف عند أمة لا يدعو إليه عند أمة أخرى، ولا أدل على ذلك إلا ما سبق وأشرنا إليه من أن اللاتين مثلاً يعبرون عن العورات والأمور المستهجنة بعبارة صريحة مكشوفة على حين أن العرب تتلمس أحسن الحيل وأدناها إلى الحشمة والتأدب في التعبير عن هذه الأمور بأسلوب أطف وأحسن كما سبق ذكره في التمهيد. وهذا الموقف هو الذي دفع كلاً من الثعالبي والجرجاني إلى إفراد هذه الظاهرة بالتأليف. يقول الثعالبي عن كتابه: (هذا كتاب، خفيف الحجم، ثقيل الوزن، صغير الجرم، كثير الغنم، في الكنايات عمّا يُستهجن ذكر، ويستقبّح نشره، أو يستحيا من تسميته، أو يُتطير منه، أو يسترفع ويصان عنه، بألفاظ مقبولة تؤدي المعنى، وتفسح عن المغزى، وتحسن القبيح، وتلطف الكثيف)²³ ويقول الجرجاني عن كتابه أيضاً: (فمن فوائده التحرر عن ذكر الفواحش السخيفة بالكنايات اللطيفة، وإبدال ما يفحش ذكره في الأسماع، بما لاتنبو عنه الطباع... ومنها ترك اللفظ المتطير به إلى ما هو أجمل منه... ومنها الأمور الجارية بين البلغاء والأدباء ومداعباتهم بمعايير لا يفتن لها إلا البلغاء... ومنها التوسع في اللغات، والتفنن في الألفاظ والعبارة).²⁴ أمّا المعين الذي نهلا منه مادة كتابيهما فهو القرآن الكريم، وأخبار الرسول ﷺ وكلام العرب من فلائد الشعراء، ونصوص البلغاء، وملح الظرفاء في أنواع النثر والنظم. وبالتأمل في أبواب الكتابين نلاحظ أن أبواب الثعالبي في كتابه (الكناية والتعريض) أشمل للدوافع النفسية والعاطفية التي تدفع المتكلمين إلى التلطف، ففي حين قصر الجرجاني معظم أبوابه على العلاقة بين الرجل والمرأة - الألفاظ الجنسية - وما يتصل بها، نجد الثعالبي يضيف أبواباً جديدة تتعلق ببعض العادات والعقائد العربية كالتفاؤل والتشاؤم والعيوب الخلقية والخلقية وما يتصل بها. يقول الثعالبي: (العرب تكني عن

²³الثعالبي، كتاب الكناية والتعريض، 3-

²⁴أحمد بن محمد الجرجاني، المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء (مصر: مطبعة السعادة، 1908م)، 4-3-

المرأة بالنعجة والشاة والقلوص والسرحة والحري والفراش والعتبة والقارورة ... وبكلها جاءت الأخبار ونطقت الأشعار²⁵ ومن أمثلة الكتابين ما يلي :

ثم يأتي بشواهد على ذلك من النثر والشعر وأحياناً من القرآن الكريم . ويختتم كلامه حول هذه الكنايات الخاصة بالمرأة بقوله (وإنما تقع مثل هذه الكناية ممن لا يجسرون على تسميتها أو يتذممون من التصريح بها) -²⁶ وفي الكناية عما يجرى بين الرجال والنساء من الشهوة والتماس اللذة ، يقول (ولا أحسن ولا أجمال ولا أطف من كناية الله تعالى²⁷ عن ذلك بقوله: { وَقَدْ أَقْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ }²⁸ وقوله عز وجل : { فَلَمَّا تَعَشَّاهَا }²⁹ وقوله تعالى : { هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ }³⁰ وقوله تعالى: { فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ } وقوله: { فَأَتُوا حَزَنَكُمْ أَيْ شِئْنُمْ }³¹ وقوله: {فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ }³² وقوله في الكناية عن طالب ذلك حكاية عن يوسف عليه السلام: {هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي }³³ ويقول الجرجاني (وتقول العربُ: في الكناية عن دخول الإنسان بأهله: بنى فلانٌ على أهله، وأصله أن كلَّ من أراد الرِّفَافَ بنى على زوجته قبةً، فقليل لكل داخل بانٍ)³⁴ وفي الكناية عن الختان ، يقول الثعالبي: (ويكنى عن الختان بالطهر والتطهير) - ويقول: (ومن لطائف الأطباء كِنَايَتُهُمْ عن حشو الأمعاء بالطبيعة وعن البول بالماء، وعن القيء بالتعالج)³⁵، ويقول في الكناية عن بعض الصفات الخلقية والخلقية ويكنى عن الأعمى بالمحجوب وعن الأعور بالمتع وعن البخيل بالمقتصد -³⁶ وفي الكناية عن القتل والموت

²⁵الثعالبي، كتاب الكناية والتعريض، 50-

²⁶الثعالبي، كتاب الكناية والتعريض، 6-

²⁷الثعالبي، كتاب الكناية والتعريض، 13-

²⁸النساء: 4: 21-

²⁹الأعراف: 7: 189-

³⁰البقرة، 2: 187-

³¹البقرة: 2: 223-

³²النساء: 4: 24-

³³يوسف: 12: 26-

³⁴الجرجاني، المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء، 23-

³⁵الثعالبي، كتاب الكناية والتعريض، 24-

³⁶الثعالبي، كتاب الكناية والتعريض، 46-47-

، يقول الثعالبي: (وتقول العرب في الكناية عن الموت : استأثر الله به، أسعده الله بجواره، نقله الله إلى دار رضوانه، اختاره الله)³⁷ ويقول الجرجاني (ومن ذلك قولهم لحق فلان باللطيف الخبير، ولحق فلان أصبعه، واستوفى أكله، واصفرت أنامله، ومضى لسبيله ودُعِيَ فأجاب، وقَصَى نحبه، والنحب النذر).³⁸ ويقول الجرجاني: (واعلم أنَّ العربَ كما يكونون عن الموت تطيراً من ذكره ، كذلك يكونون عن القتل، فيقولون : ركب فلانُ الأعرَّ الأشقرَ إذا قُتِلَ ، ويكنى عن قتل الملوك خاصة بالمشعرة ، إذ كانوا يكبرون أن يقولوا قُتِلَ ، فيقولون أشعر من إشعار البدن)³⁹ ويقول الثعالبي في الكناية عما يُتطيرُ من لفظه : (يكنى عن اللديغ بالسليم ، وعن الأعمى بالبصير ، وعن المهلكة بالمفازة)⁴⁰ ويقول الجرجاني: (واعلم أنَّ العربَ تطير من ذكر البرص، فتكنى عنه بالوضح، ومنه سُمِّيَ جذيمةُ الوضاح). ويقول: (ومما يُتفَاءَلُ بذكره قولهم للفلاة مفازةٌ لأن القفارَ في ركوبها الهلاكُ فكان حَقُّها أن تسمى مَهْلَكَةً ولكنهم أحسنوا لفظها تطيراً بها، وعكسوه تفاقولاً، ومن ذلك تسمية اللديغ سليماً والأعور ممتعاً تطيراً من ذكر العور).⁴¹

المبحث الثالث: دوافع التلطف وأسبابه

يرى أولمان أنَّ دوافع التَّلْطُفِ (حسن التعبير) دوافعٌ نفسيةٌ ، وأنَّ المتكلمَ يعتمد إلى استعمالِ هذا الأسلوبِ مع كلِّ شيءٍ مقدسٍ أو ذى خطرٍ، أو مثيرٍ للرعب والخوفِ، كما يطبقه على الأشياءِ الشائنةِ ، أو غيرِ المقبولةِ لدى النفس-⁴² وَ يُجَمِلُ بعضُ اللغويين المعاصرين هذه الدوافعَ في ثلاثةٍ هي: الخوفُ والفرعُ، الكياسةُ والتأدبُ، الخجلُ والاحتشامُ-⁴³ اما وأبرز دوافع التَّلْطُفِ فهي بما يلي:

أولاً: الكياسةُ والتأدبُ والاحتشامُ

ويعد مجالُ المرأةِ وعلاقتها بالرجل وما يتصلُ بذلك من أحوالٍ أو أفعالٍ أو أعضاءٍ أبرز وأكبر المجالات التي تدفعُ المتكلمَ إلى التَّلْطُفِ بشأنها، إذ التَّلْطُفُ في هذا المجال من باب التحرز عن ذكر هذه الألفاظ

³⁷الثعالبي، كتاب الكناية والتعريض، 62-

³⁸الجرجاني، المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء، 64-

³⁹الجرجاني، المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء، 67، 69-

⁴⁰الثعالبي، كتاب الكناية والتعريض، 71-

⁴¹الثعالبي، كتاب الكناية والتعريض، 70-

⁴²أولمان، دور الكلمة في اللغة، 196-

⁴³حسام الدين، المحظورات اللغوية، 51-

أو التصريح بها، فيعدل المتكلم إلى الكناية، وهي مطلوبة مستحبة ليس في العربية فحسب بل في معظم اللغات، لأن كلمات هذا المجال مفضوحة ينفر منها الناس⁴⁴. وقد سبقت الإشارة إلى تعليل الجرجائي لكثرة الكنايات عن المرأة عند العرب، وأنها من باب التذمم من التصريح باسم المرأة كما هو الحال في هذا الزمان. وفيما يتعلق بهذا المجال يقول الدكتور عمر فروخ من علماء العربية: وكان قد لفت نظري ورود جملة في كتاب (فقه اللغة) للعالبي هي: (لعل أسماء النكاح تبلغ مائة كلمة عن ثقات الأئمة بعضها أصلي، وبعضها مكني) وكنت في أثناء قراءاتي المتكررة للقاموس المحيط للفيروز آبادي، أستغرب كثرة الألفاظ الجنسية، حتى حُيِّلَ إلى أنه لا تخلو مادة من مواد المعجم العربي من لفظ جنسي دال على اسم أو فعل أو حال لذلك الجانب من حياة البشر وحياة الحيوان، ثم يستطرد قائلاً: وعدادت أنا الألفاظ المتعلقة بهذا المدرك في القاموس فوجدتها تزيد على ألف ومائتين... وحاولت تعليلاً لهذه الكثرة.. فبان لي أن جانباً كبيراً منها من باب الكناية... حيث كان العربي يُكْنَى به عن المدرك الجنسي بلفظ... فإذا اشتهر هذا اللفظ ودلَّ على ما كان يُكْنَى عنه صراحةً استحيا العربي من الاستمرار في استعماله فانتقل إلى كناية جديدة غامضة⁴⁵.

ثانياً: التفاؤل والتشاؤم

حيث يُعدُّ من أبرز دوافع التلطف في اللغات، ويشمل كل الكنايات الخاصة بالمجالات التي نستبين منها الضعف الإنساني كالموت والمرض وأسماء بعض الحيوانات، والجن، والسوام، ونحوها مما يلعب التفاؤل والتشاؤم فيها دوراً كبيراً، فهي مجالات تثير ألفاظها الخوف والهلع في نفوس البشر وينفرون من سماعها، ويتفادون ذكورها، فراراً مما تبعثه في الأذهان من آلام. وسرُّ التلطف في هذا المجال، هو ما استقر في أذهان الناس منذ القدم من الربط بين اللفظ ومدلوله ربطاً وثيقاً حتى إنه يُعتقد أن مجرد ذكر الموت يستحضر الموت، وأن النطق بلفظ الحية يدعوها من جحرها فتنهش من نادها أو ذكر اسمها⁴⁶. ولعل هذا يفسر لنا تعدد مسميات بعض الألفاظ المترادفة في العربية كلفظ الداهية التي قال عنها حمزة الأصفهاني: (إن تكاثر أسماء الدواهي من إحدى الدواهي)⁴⁷.

ثالثاً: التبجيل والتعظيم

⁴⁴ دكتور إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ (مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، 1980م)، 142-

⁴⁵ عمر فروخ، عبقرية اللغة العربية (بيروت، دار الكتاب العربي، 1401هـ، 1981م)، 57-

⁴⁶ دكتور إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، 144-

⁴⁷ حمزة بن الحسن الأصفهاني، التنبيه على حدود التصحيف، تحقيق - الشيخ محمد حسن (بغداد: مطبعة المعارف، 1967م)، 132-

حيث يعدُّ التبجيلُ والتعظيمُ في العربية من أبرز دوافع التَّلَطُّفِ ويشمل الكناياتِ الخاصةً بالمجالاتِ التي نستبينُ منها التبجيلَ الإنسانيَّ للأشياءِ ويدخلُ في هذا المجالِ الهيبةُ والاحترامُ والولوعُ بالشيءِ وحبهِ. ومن أمثلة ذلك: إطلاقُ لفظِ الأَبِّ على العمِّ، وإطلاقُ لفظِ الأُمِّ على الخالَةِ، ونحو ذلك.⁴⁸ ولعل هذا يفسر لنا أيضاً تعدد مسمياتِ بعضِ الألفاظِ المترادفةِ في العربية، كلفظِ الحَبِّ الذي ذكروا له ستين اسماً⁴⁹. وكذلك لفظِ العَسَلِ الذي ذكروا له ثمانين اسماً.⁵⁰ إنَّما تدلُّ عليه هذه الألفاظُ لا يُعدُّ في حقيقته مصدرَ استهجانٍ لدى المجتمع كما هو الحالُ في مجالِ العلاقةِ بين الرجل والمرأة وما يتصل بذلك، كما أنَّه لا يعدُّ مصدرَ ضعفٍ لدى الجماعة اللغوية كالألفاظِ الموتِ والمرضِ ونحوها، بل إنَّها أسماء نابعة من شدةِ ولوعِ المجتمعِ العربيِّ بما تدلُّ عليه هذه الألفاظُ وما ذاك التعدادُ لمسمياتها إلا لتعلق القلوبِ بها وتبجيلها وتفسير ذلك أن اللفظَ إذا شاع استعماله في الدلالةِ على هذه المعاني فقد تأثيره، ففقد قيمته الدلالية التعبيرية، من أجل ذلك كان العربيُّ ينتقلُ باللفظِ من مجازٍ أصبح مألوفاً ضعيف التأثيرِ إلى مجازٍ جديدٍ أحسنَ وقعاً في النفس وأكثر أثراً.⁵¹

المبحث الرابع: وسائل التلطف

أما عن الوسائل التي يقصدها المتكلم حين يتلطف فأهمها:

أولاً: الاستعمال المجازي

يعدُّ المجاز من أهم وسائل المتكلم للتعبير عن المعاني المحظورة أو المقدسة لديه، فيعمدُ إلى الكناية أو التورية أو التعريض ونحوها يقول الجرجاني: (واعلم أنَّ الأصلَ في الكناياتِ عبارةُ الإنسانِ عن الأفعالِ التي تُستر عن العيونِ عادةً من نحو قضاءِ الحاجةِ والجماعِ، بألفاظٍ تشير إلى معناها ولكن غير موضوعةٍ لهذه المعاني والمفاهيم، تنزهاً عن إيرادها بوضوح الفاظها وتحرزاً عن استعمال الفاظ وضعت لآظهار معانيها، إذ الحاجةُ إلى سترِ أقوالها كالحاجةِ إلى سترِ أفعالها، فالكنايةُ عنها حُرْزٌ لمعانيها)⁵² ويقول أحدُ المحدثين: (والكنايةُ ليست إلا صورةً مهذبَةً متحضرةً مما يُسمَّى تحريمُ المفرداتِ فكثيراً ما يقع لدى المتكلمين أن يكونَ لبعض الألفاظِ طابعُ السريةِ والخفاءِ فيمنعُ

⁴⁸ بن محمد الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: مصطفى السقا وشركاه (مصر: المطبعة الادبية، 1972م)، 367.

⁴⁹ ابن قيم الجوزية، روضة المحبين ونزهة المشتاقين (مكة المكرمة: دار الباز للطباعة والنشر، ب ت)، 16.

⁵⁰ جلال الدين السيوطي، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها (القاهرة، دار احياء الكتب العربية)، 1: 402.

⁵¹ عمر فروخ، عبقرية اللغة العربية، 58.

⁵² الجرجاني، المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء، 5-6.

الأفراد، من استعمالها).⁵³ ولعل هذا يفسر لنا ترادف الكثير من الألفاظ في العربية كلفظ الداهية، والموت، والأسد ونحوها تبعاً للتسمية المجازية عن طريق الكناية وصيرورتها إلى الحقيقة بفعل الاستعمال.⁵⁴ وبيان ذلك أن معظم هذه الألفاظ المترادفة إنما هي كناية شاع استعمالها على الألسن حتى أصبحت حقائق، ومرد ذلك أن معظم هذه الألفاظ مما يتخرج الناس من التعبير عنها بأسمائها الصريحة مراعاةً للآداب الاجتماعية والاعتبارات الأخلاقية والنفسية، ولهذا تلجأ الجماعة اللغوية إلى الكناية بلفظ مرادف، ومما يعزز ذلك ما حكاه أبوحيان التوحيدي عن ابن فارس، حيث قال: (حدثني ابن فارس: جرى بين يديه أسماء الفرج وكثرتها، فقال بعض الحاضرين: ماذا أرادت العرب بتكثيرها مع قبورها؟ فقال: لما رأوا الشيء قبيحاً جعلوا يكتنون عنه، وكانت الكناية عند فشوها تصير إلى حد الاسم الأول فينتقلون إلى كناية أخرى ... وعلى هذا كثرت الكنايات وليس غرضهم تكثيرها).⁵⁵ ولا يقتصر الأمر على الألفاظ التي يتخرج الناس عن التعبير عنها بألفاظها الصريحة - كالألفاظ الدالة على النكاح أو الألفاظ الدالة على الخوف كلفظ الداهية، بل يتجاوزها إلى الألفاظ ذات القدسية في حياة المجتمع كلفظ الحب، وكل ما علق بالقلب، يقول ابن قيم الجوزية: (باب أسماء المحبة: لما كان إلفهم لهذا المسمى أشد وهو بقلوبهم أعلق كانت أسماءهم لديهم أكثر . وهذا عادتهم في كل ما اشتد إلفهم له أو كثر خطوره على قلوبهم، تعظيماً له، أو اهتماماً به، أو محبة له، فالأول: كالأسد والسيف، والثاني: كالداهية، والثالث: كالخمر، وقد اجتمعت هذه المعاني الثلاثة في الحب، فوضعوا له قريباً من ستين اسماً وهي: المحبة، والعلاقة، والهوى، والصبوة، والصبابة، والشغف، والمقه، والوجد والكف والتتيم والعشق والجوى والذنف والشجوة والشوق ... الخ).⁵⁶ فهذه الألفاظ تفقد عند شيوعها على الألسن تأثيرها البلاغي، فتفتقد بذلك قيمتها الاجتماعية، فيلجأ العربي إلى لفظ متبادل أقوى أثراً في النفس وأحسن وقعاً على الآذان، وعلى هذا تعددت مسميات الشيء الواحد من باب التبجيل والتعظيم لا الاستهانة والاستهجان - بل إن من أبرز أسباب ظاهرة التضاد في العربية التعبير بلفظ محبوب عن لفظ مكروه لأسباب نفسية حيث لعبت غريزة التفاؤل والتشاؤم عند العرب دوراً كبيراً في نشأة بعض ألفاظ هذه الظاهرة، فرأينا العرب تعدل عن الألفاظ الدالة على المعنى الحقيقي إلى ضدها تشاؤماً من

⁵³ فندريس، اللغة، تحقيق - عبد الحميد الدواخلي ومجد القصاص (القاهرة: المركز القومي، 2014م)، 281-

⁵⁴ حاكم مالك لعبي، الترادف في اللغة (الجمهورية العراقية: منشورات وزارة الثقافة والإعلام، 1980م)، 125-

⁵⁵ أبو حيان على بن محمد التوحيدي، اخلاق الوزيرين، تحقيق د. إبراهيم الكيلاني (دمشق: دار الفكر، 1961م)، 254-

⁵⁶ ابن قيم الجوزية، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، 16-

التصريح بها، وتفاوتاً بضدها، يقول ابن قتيبة: (ومن المقلوب أن يوصف الشيء بضد صفته للتطير والتفاوت كقولهم للديخ سليم تطيراً من السقم وتفاوتاً بالسلامة، وللعطشان ناهل أي سينهل يعنون يروى، وللفلاة مفازة أي منجاة وهي مهلكة)⁵⁷ ويقاس على ذلك قول العرب بصير للأعمى، وقافلة للمسافرين تفاوتاً برجوعهم إذ الأصل فيها الدلالة على الراجعين من السفر . ونحو ذلك -⁵⁸ بل تجاوز العرب ذلك إلى المبالغة في وصف الأشياء بغير صفاتها الحقيقية خوفاً عليها من العين والحسد، قال أبو عبيدة: (مهرة شوهاء قبيحة وجميلة، قال أبو حاتم مفسراً ذلك: لا أظنهم قالوا للجميلة شوهاء إلا مخافة أن تُصيبها عين، كما قالوا: للغراب أعور لحدة بصره).⁵⁹

ثانياً: التحريف الصوتي

إن الأثر الناجم من التحرج من استعمال المفردات لا ينحصر في الاستعمال المجازي بل يتجاوزهُ إلى التحريف الصوتي للكلمة، وذلك عن طريق الإبدال لتخفيف ما تنطوي عليه الكلمة من الخطر أو الاستهجان، دون أن ينقص ذلك من قيمتها الدلالية وفي استطاعة كل إنسان في هذه الحالة أن يفهم المراد على الفور، وكان اللسان قد زل وهو ينطق الكلمة ولكن الخطأ هنا متعمد لغايات خفية أو لمراعاة التلطف. ونلاحظ هذا التحريف الصوتي للكلمات واضحاً في مجال العلاقة بين الرجل والمرأة وما يتصل بها، من أمثلة ذلك: قولهم بك الرجل المرأة يبكها بكا، وهكها يهكها هكا.⁶⁰ وقولهم: طفزها وطعسها وطخزها وطحسها ودعزها ودعسها.⁶¹

وقولهم: عسلها وغسلها وخطأها وفظأها، عصدها وعزدها ودسها ودفسها وفتحها وفتحها، كل ذلك إذ نكحها⁶² وكلها كنيات عن الجماع. كما نجد في المعاجم وكتب الإبدال أيضاً كلمات كثيرة ذات دلالات سلبية تتميز بالتحريف الصوتي كالكلمات الدالة على ضعف الإنسان أو دمامته ونحو

⁵⁷ عبد الله بن مسلم قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: السيد أحمد بقر (القاهرة، دار التراث، 1973)، 185.

⁵⁸ دكتور إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1992م)، 29؛ الشيخ عبدالواحد، البلاغة وقضايا المشترك (السكندرية: مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، 1986م)، 120.

⁵⁹ إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، 209.

⁶⁰ يعقوب بن السكيت، كتاب الإبدال، تحقيق: حسين محمد شرف (القاهرة: المطابع الأميرية، 1398هـ)، 1: 88.

⁶¹ ابن السكيت، كتاب الإبدال، 2: 119؛ حسام الدين، المحظورات اللغوية، 62.

⁶² على بن الحسين الهنائي كراع النمل، المنتخب من غريب كلام العرب، تحقيق: محمد بن احمد العمري (مكة

المكرمة: معهد البحوث العلمية، 1409هـ)، 1: 138.

ذلك، مثل قولهم: رجلٌ حَزَوْرٌ وَهَرَوْرٌ للضعيف، ورجلٌ حَبْلَقٌ وَهَبْلَقٌ إذا كان دميماً، ورجلٌ قَنْزٌ وَكَنْزٌ إذا كان صغير الحجم⁶³ - وَعَشْبَةٌ وَعَشْمَةٌ إذا كان يابساً من الهزال، وَقَحْبَةٌ وَقَحْمَةٌ لكل كبيرة مسنة، ورجلٌ بُخْتٌ وَبُهْتٌ قصيرٌ، وموتٌ دُؤَافٌ ودُؤَافٌ وزؤَافٌ وهو الذى يعجل القتل، والجَلْهُ والجَلْحُ وهو انحسار الشعرِ عن مُقَدِّمِ الرأسِ، وأَيْمٌ وَأَيْنٌ للحية⁶⁴ - ونحو ذلك مما يمكن تفسيره تبعاً للتحريفِ الصوتي الذى يتوسل به المتكلمُ بغرضِ التَّلَطُّفِ، وتعليلُ ذلك وبيانه أنَّ هذه الألفاظُ مما يتخرجُ الناسُ من التعبيرِ عنها بألفاظها الصوتية مراعاةً للآدابِ الاجتماعية والاعتباراتِ الأخلاقية والنفسية، ولهذا تلجأ الجماعةُ اللغويةُ إلى التحريفِ في صورةِ الكلمةِ كلما شاع استعمالها كما لجأت إلى الكناية بالمرادف والمضادِّ وغيرها من الألفاظِ التى تتقاسمُ معها المجالَ نفسه والدوافعُ نَفْسَهَا، مما سبقت الإشارةُ إليه.

نتائج البحث

ان التلطف فى اللغة والطبائع يؤثر على الحيوية البشرى والمجتمع الانسانى ويزيد السلام والطمأنينة فى المجتمع البشرى. التلطف الفردى والموقف الجماعى هما مواقف عمد المتكلم التلطف يستعملان صراحة احيانا وكناية فى بعض المواقع لاطهار مراد المتكلم وحديث قلبه. اسباب ودوافع للتلطف فى الاسلوب العربى ثلاثة وهى: اولاً الكياسة والتأدب والاحتشام وثانياً التفاؤل والتشاؤم وثالثاً التبجيل والتعظيم وتكلم فيها اللغويون كلاماً تاماً لا يوضح المقصود فى هذه الدوافع الثلاثة. اما نكتة وسائل التلطف فى هذا البحث ترشد القارى الى فهم الاستعمال المجازى والتحريف الصوتى كما اتضح الموضوع بالامثلة الباهرة. فهذا البحث العملى مهم جداً من جهة بانه وسيلة لفهم لين الكلام واستعمال الفاظ متبادلة ومتعارية للتحسين والتزئين فى الكلام ولزيادة اثرها على السامع. لا بد للباحثين ان يتعلموا اساليب الكلام واثره وكيف يمكن تحسين الكلام فى بحوثهم وتكلمهم فى المجالس العلمية والاجتماعية اليومية. على المدرسين والعماء والمبلغين خاصة ان يراعوا الفاظ كلامهم لحصول نتائج جدهم فى اشاعة العلم وتبليغ احكام الدين. يحتاج الانسان الى تغيير الكلام باستعمال الفاظ لينة لطيفة بدل الصعبة الشديدة فى مواقع الاجتماع لان اختلاف الطبائع توصل الى اختلاف الفكر واتصادم احيانا فاذا كان الكلام لطيفاً فلا مجال لاحد ان يصادم ويحارب الآخريين فلا بد ان يكتب ويطلع المباحث فى هذا المجال لتربية الباحثين القارئين العالمين.

⁶³أبو الطيب عبد الواحد بن على اللغوى، كتاب الإبدال، تحقيق - عز الدين التنوخي (دمشق: مطبوعات

المجمع العلمى العربى)، 1: 321، 325، 2: 357؛ حسام الدين، المحظورات اللغوية، 62.

⁶⁴ابن السكيت، كتاب الإبدال، 71، 77، 85، 92، 93.